لقد سيطرت بريطانيا وفرنسا على المتوسط الشرقي منذ حوالي نهاية القرن السابع عشر فصاعداً . غير أن مناقشتي لتلك السيطرة والاهتمام المنظم لا تنصف المسائل التالية : (أ) الاسهامات المهمة التي أسدتها للاستشراق كل من المانيا وايطاليا وروسيا واسبانيا والبرتغال . (ب) الحقيقة القائلة ان أحد البواعث المهمة على دراسة الشرق في القرن الثامن عشر كانت الثورة في الدراسات الثوراتية والتي أذكاها رواد مثيرون للاهتمام المتنوع مثل المطران لوث وأيشهورن وهردر وميخائيلس . ففي المقام الأول ترتب علي التركيز بشدة وصرامة على المادة البريطانية ــ الفرنسية وفيما بعد على المادة الأميركية لأنه بدا لي صحيحا بشكل لا مفر منه ليس فقط ان بريطانيا وفرنسا كانتا الأمتان الرائدتان في الشرق والدراسات الشرقية ، بل ان هذه المواقع الطليعية قد جرى التمسك بها بفضل الشبكتين الكبيرين الكولونياليتين في التاريخ السابق للقرن العشرين . وأعتقد أن المركز الاستشراقي الاميركي قد تلاءم منذ الحرب العالمية الثانية بوعي ذاتي تماما في الأماكن التي اكتشفتها ونقبتها الدولتان الأوروبيتان السابقتان .[٨] كما اعتقد ايضا بأن مجرد النوعية والثبات التي ميزت الكتابة البريطانية والفرنسية والأميركية عن الشرق ترفعها فوق العمل الحاسم دون شك والذي تم في المانيا وايطاليا وروسيا وغيرها من البلدان . بيد أني أعتقد أنه من الصحيح أيضاً بأن الخطوات الرئيسية في حقل الدراسات والأبحاث العلمية الاستشراقية قد جرى اتخاذها أولا إما في بريطانيا أوفرنسا ، ومن ثم بادر الألمان إلى توسيعها والاضافة إليها . إن سيلفستر دوساسي ، مثلا ، لم يكن فحسب أول مستشرق اوروبي حديث ومؤسسي ، اشتغل في موضوعات الاسلام والأدب العربي المذهب الدرزي وبلاد فارس في ظل الساسانيين . بل كان معلم شامبوليون وفرانز بوب ، مؤسس علم الدراسات اللغوية المقارنة في المانيا.وثمة ادعاء مماثل في الاسبقية واحتلال المركز المرموق لاحقا وتجوز نسبتهما لكل من وليم جونز وادوارد وليم لين .

وفي المقام الثاني ــ وهذا ما يعوض باسهاب عن النواقص التي تعتري دراستي للاستشراق ــ ثمة أعمال مهمة وحديثة العهد قامت بدراسة الخلفية المصاحبة في الدراسات العلمية التوراتية لنشوء ما دعوته بـ الاستشراق الحديث . أما العمل الأفضل والوثيق الصلة بالموضوع على نحو مضيء فهو دراسة إ . س . شيفر المثيرة للاعجاب بعنوان « **قبلة خان وسقوط القدس**[١٤] » . إنها دراسة لا مناص منها عن جذور الرومانسية والنشاط الفكري المدعم لكثير مما يدور في كتابات كولريدج وبراونينغ وجورج اليوت . والى درجة معينة فان عمل شيفر يحسن الخطوط العريضة التي قدمها شغاب ، وذلك من خلال تبيان المادة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع والتي يمكن العثور عليها لدى علماء التوراة الألمان ، ومن ثم يستخدم تلك المادة لقراءة أعمال ثلاثة كتاب بريطانيين رئيسيين بطريقة ذكية ومثيرة للاهتمام دائما . مع ذلك ، فالشيء الذي ينقص الكتاب هو بعض احساس بالحافة السياسية والأيديولوجية الممنوحة للمادة الشرقية على يد الكتاب البريطانيين والفرنسيين الذين يشكلون محط اهتمامي الرئيسي ، وعلاوة على ذلك ، فانني احاول ، بخلاف شيفر ، بسط التطورات اللاحقة في كل من الاستشراق الاكاديمي والأدبي ، وهي تطورات تؤثر في الصلة بين الاستشراق البريطاني والفرنسي من جهة ونشوء امبريالية ذات عقلية كولونيالية صريحة من جهة ثانية . إذ أرغب أيضاً في إظهار كيف أن جميع هذه المسائل المبكرة يتم استخراجها إلى حد ما في الاستشراق الاميركي بعد الحرب العالمية الثانية .